الخاتمة

وبعد هذا التجوال الممتع والتعايش المبارك مع هذه الشخصية الجليلة ، العالم الوقور ، المحقق الفخور ، مفخرة علماء الروم المولى شمس الدين أحمد بن موسى الخيالي رحمه الله رحمة واسعة في كتابه شرح القصيدة النونية للمولى خضر بيك نجد أنفسنا بصدد إنهاء هذا البحث الكلامي والخضم الفكري ، فإذا بنا نستقبل الخاتمة مودعين بذلك متعة هذا البحث وروعة تلك الأفكار. ولا أعتقد أن إعادة ما سبق أو تكرير بعضه يعد ميزة في خاتمة البحث العلمي؛ لذا سأدع الصراع الفكري كله جانبا ، وأنهي الخلافات المذهبية جانبا وأكتفي بإيراد خلاصة ما خلصت إليه من نتائج هذا البحث ، ومن حصيلة جهدي من علوم الخيالي الغزيرة مع تقييد ما أراه مهما من التوصيات .

لاخلاف في أن الخيالي من أبرز الشخصيات الإسلامية في ميدان العلوم العقلية والنقلية ، وهذا واضح من طول تتبعنا لهذا الكتاب بصورة جيدة . وإسهاماته في علم الكلام السني خاصة تعد تطورا هاما في منعطف الفكر الإسلامي عامة والكلام الماتريدي خاصة . قد استقى الخيالي من أفكار السابقين عليه مضفيا عليها بهاء وإشراقا ووضوحا كما أنه أبدى مخالفات لها بين الحين والحين .

وهو وإن تأثر ففي كل تأثره دلالة على النضج والوعي ، وفي كل تأثره نجد له تجديدا أو إضافة ، أو إزالة لبس أو توضيح غامض . ولم يخل كتابه من ابتكارات نادرة يستبد بها كذلك ، الأمر الذي يدل على أن له فهمه الخاص به وشخصيته المستقلة .

ولا يخفى في طيات هذا البحث أن الخيالي قد تناول الموضوعات الكلامية بشتى فروعها المتعددة ، فتعددت آراءه ووجهات نظره ، فتارة يتمسك بماتريديته الخالصة وتارة نجده أشعريا بحة كما نجده في أحيان كثيرة يجمع بين أمرين ويوفق بين الطريقين .

وبالنسبة للفلسفة المشائية فقد رفض كثيرا من آراءها البعيدة عن روح الدين الإسلامي مثل القول بقدم العالم وغيره ، ولكنه حاول الدفاع عن الفلاسفة في قضية

هاجمهم الجمهور بسببها؛ وهو قضية علم الله سبحانه وتعالى بالجزئيات المتغيرة ، مقتديا في ذلك ببعض المفكرين الكلاميين .

ثم إنه سجل آراءه كلها مدركا وواعيا لما يقول ومحاولا لتقريبها إلى أذهان القارئ المتفتح . ويبدو الخيالي في شرح النونية أكثر بساطة ـــ أو بالأحرى أقل تعقيدا ـ من حاشيته على النسفية التي أحب أن أصفها بأنها لغز المتكلمين ومفخرتهم ؛ فشتان بين أسلوبه في شرح النونية والحواشي النسفية . ويبدو كذلك أكثر تفصيلا من تلك الحاشية .

ونجده كذلك متعززا بآراءه العلمية وواثقا بتحقيقاته الدقيقة ، إلا أن ذلك لم يدع الخيالي إلى حد الإعجاب والغرور ، أو إلى تحقير الآخرين والاستهزاء بهم ؛ بل كان من العلماء الذين توجوا علمهم بالعمل وعمروا حياتهم بالتقوى والورع. لم يشتم ولم يسب ولم يغضب مقتديا في ذلك كله بإمام الأئمة قدوة الأفاضل سيد المرسلين محمد ﷺ الذي كان لايغضب إلا إذا انتهكت حرمات الله سبحانه وتعالى .

بل كان الخيالي ممن تغلبوا على الشهوات الحسية ولم يسمحوا لها أن تتغلب عليهم ، وابتعدوا عن الانغماس في الملذات الخسيسة وارتفعوا عن سفاسف هذه الحياة الفانية. ولذا ـ ولله الفضل ـ وجدناه لايأكل في اليوم إلا مرة حتى أصبح أنحف الناس وضرب به المثل ، ولم نجد أيضا أنه قد تزوج امرأة ، الأمر يذكرنا سيرة بعض أسلافنا مثل الإمام ولي الله بلا نزاع ـ على ما وصف ابن حجر في مقدمة تحفة المحتاج ـ الشيخ محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي الأشعري .

فكما يظهر من كتابه ـ في أماكن متعددة ـ روح التصوف كان في حياته صوفيا حقا ، وليس مدعيا للتصوف كما نجد ذلك عند أناس؛ بل حارب التظاهر به واستخدامه في أغراض دنيئة مثل القول بسقوط التكاليف . فكان من الأولياء الأبرار والسادات الأطهار ، ولا نجد له مثيلا في التاريخ إلا نادرا ـ أو أندر .

أنجز كل هذه المفاخر العلمية والمهام الجزيلة في عمر قصير ، وكأني بالخيالي ـ تغمده الله بلطفه وكرمه ـ قد أدرك قرب الأجل وانقطاع الأمل ونظر إلى الموت كأنه على عتبة بابه أو هو أقرب إليه من شراك نعله . وقد حدث ما كان

يتوقعه ووافته المنية وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ، ومضى إلى ربه وهو راض عنه ، فرضي الله عنه ورضي عنا جميعا والمسلمين .

وأرى من اللازم على الأمة الإسلامية أن تحيى فكر الخيالي وتراثه ، وإبراز ما هو غير متوفر من أعماله في أيدينا الآن ، حتى نجدد العقل الديني بمعرفة تراث هؤلاء الأفذاذ ، وكفانا انسياقا وتبعية ، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. وبذلك فقط نصبح قادرين على إحاطة ما أنجزته العقول الإسلامية عبر القرون في ميادين العلم والفكر ، وبه أيضا يتكشف لنا امتداد تلك الأفكار عبر الزمن وتناقلها عبر الأجيال .

وأخيرا ــ ولله الحمد والمنة ــ أتضرع إلى المولى جل وعلا أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه ويجعله سببا للهداية والرشد وجالبا للخير والبر ببركة المصطفى وآله والقائمين بدينه وبحرمة هذا العالم العامل البطل المجاهد المولى الخيالي رحمه الله .

ويطيب لي أن أذكر في نهاية هذه الرسالة ما قاله العماد الإصفهاني: « إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتابا في يومه إلا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العبر ، وهودليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

ثم لا يخلو جواد من كبوة ولا سيف من نبوة ، ولا عمل من الهنات ، فهذا لا مناص منه للبشرية . فما كان في هذا العمل من خير وصواب فمن توفيق الله سبحانه وتعالى وحده وما كان من خطإ أو نسيان فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله منه براء ، وحسبي أني حاولت . وأستغفر الله العظيم لي وللمسلمين وخاصة لمن كرَّمني بالإشراف على هذه الرسالة ولمن شرفني بمناقشتها ولكل تلك الأيادي البيضاء النقية السخية التي تكرمت علي بالعون والمدد ماديا أو معنويا ولكل من له حق علي ــ من قريب أو بعيد ــ في إنجاز هذا العمل آمين .